رسالة التوحيد لمحمد عبده

بقلم
الدكتور عثمان أمين
رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة

١ — مقدمة عن محمد عبده وفلسفته

(ا) خلاصة سيرة ورسالة :

فى الأبيات القليلة التى ألقاها حفنى ناصف فى رثاء الشيخ محمد عبده ، لخص الشاعر الكبير السمات البارزة فى سيرة الأستاذ الإمام والخصائص المميزة لدعوته الإصلاحية التى ازدهرت فى العالم الإسلامى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر :

يقضى حوائج سائليه فلا يرى
فى نفسه سأماً ولا استكبارا
ويعلّم الناس الأمانة والوفا
والصدق والإخلاص والإيثارا
ويظل بالإصلاح مغرًى كلما
وجد السبيل إلى صلاح سارا
حتى كأن عليه عهداً للعلا
أن يصلح الأخلاق والأفكارا

ففى مستهل هذا القرن كانت الشبيبة المصرية فى حيرة من أمرها ، فأخذت تقلب البصر فى الظلام الكثيف ، تتلمس بصيصاً من نور ، وتتطلع إلى رائد يرشدها ويهديها سواء السبيل . وسرعان ما وجدت رائدها فى شخص الأستاذ الإمام ، فى شخص رجل قد زانته الحكمة ، وصقلته الثقافة ، وحنكته التجارب ، دون أن تفقده حدة الذهن وتأجج العاطفة وعزمة الشباب ، رجل عرف كيف يجمع بين القديم والحديث ويؤلف بين العلم والدين ، ويعيش لأمته قبل أن يعيش لنفسه ولأسرته ، وبالإجمال رجل يحافظ على زى الشيوخ ، ولكنه يحمل قلباً ورأساً لم يعهد الناس لهما نظيراً بين أصحاب الطرابيش ولابسى العمائم والقفاطين .

والتفت الشبيبة حول الأستاذ الإمام ، لأنه كان بروحه الفتية أقدر الناس على استنهاض الشباب لتحقيق المبادئ العالية . وحفزه إلى بذل الجهود لتوخى الحق والخير والجمال ، ولأنه كان بعلمه واخلاصه أقدر الزعماء على تحرير الأذهان من زيف الآراء وتصفية القلوب من زيغ المعتقدات . واستطاع الإمام أن يطبع فى نفوس معاصريه أعمق الآثار : لأنه وقف من المجتمع موقف الناقد الحصيف ، فأعلن حقوق الفكر ، ودافع عن كرامة الفرد ، وأيد مطالب الضمير ، ورفع لواء الحرية ، ودعا إلى الاجتهاد ، وحمل على المقلدين ، وحاول أن يبث فى نفوس

المسلمين مكارم الأخلاق – التى هى المقصد الأسنى لرسالة الرسول – أخلاق الصبر والدأب ، ومواصلة السعى واتقان العمل ، والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. ومن حق الأستاذ الإمام علينا أن نقول: إنه هو الذى زود التفكير المصرى بالوحدة والانسجام ، وطبعه بطابع الدقة والتحديد ، وإنه هو الذى استطاع بقوة شخصيته وكتاباته أن يكون مصدر إلهام لرجال الدين والسياسة والاجتماع والفلسفة فى مصر . فنشأت بفضله وانتمت إليه أربع مدارس مهمة : الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والفلسفية .

وقد قلنا وكررنا القول فى كتاباتنا العديدة عن الأستاذ الإمام إن قضية الإصلاح « الجوانى » ، إصلاح العقلية والعقيدة والأخلاق ، هى الرسالة الأولى التى اضطلع بها ذلك المصلح الاجتماعى الكبير ، وإن هذا الجانب من التربية الإنسانية هو الذى حظى بكل اهتمامه فى حياته الخصبة النافعة الهادية : يكافح العادات والتقاليد السيئة ، وينقد البدع والمعتقدات الفاسدة ، ويحمل على الظلم والاستبداد ، ويندد بجميع الانحرافات الاجتماعية والسياسية ، ويبذل السعى الموصول لإصلاح مناهج التعليم الأزهرى ، ولإصلاح المحاكم الشرعية . . يتصدى لذلك كله بغية إصلاح الأخلاق فى الجماعة الإسلامية عموماً وفى المجتمع العربى خصوصاً .

ولكنه من جهة أخرى كان مقتنعاً أشد الاقتناع بأن السياسة ما دخلت شيئاً إلا أفسدته ، وقد أشار فى « رسالة التوحيد » إلى الأضرار التى لحقت بالعقائد الدينية حين تغلغلت فيها الأهواء السياسية ، فأورثت المسلمين شقاقاً وخلافاً ؛ ثم إن جمهرة البلاد الإسلامية سواء كانت مستقلة أو تحت حكم الأجنبى المحتل أو المستعمر ، لم يكن لها فى ذلك الحين إلا حكومات ظالمة مستبدة : فمحاولة تأييد سياسة معينة ، أو مناوأة سياسة أخرى ، عن طريق الدين أو العلم تكون عاقبتها شراً على الأمرين جميعاً ؛ ومن الخير للمصلح المخلص أن يستغل لمطالب الإصلاح بعض الاستعدادات الطيبة عند أصحاب السلطان .

ولكن الأستاذ الإمام ، على الرغم من حبه وإيثاره لرسالته ، كأستاذ للشباب ومرب للنفوس ، وعلى الرغم من انصرافه عن السياسة الحزبية ، لم يكف قط عن إبداء رأيه فى المشكلات العصرية الكبرى من سياسية واجتماعية ، فنهض بعبء ذلك الكفاح الروحى الموصول الذى يكفل للمفكر حق الإشراف على سير المجتمع فى عصره . وحسبنا أن ننظر فيما قام به الأستاذ الإمام من نشر المؤلفات أو كتابة المقالات ، وأن نعتبر ما ألقى من دروس فى تفسير القرآن أو فى تقويم اللسان ، وما بث من إصلاح فى القضاء أو فى التعليم أو فى الإفتاء ، حسبنا على الجملة أن نقدر ما بذله من الجهود الإصلاحية الصادقة فى مجالات الأخلاق والدين والاجتماع ، لنقرَّ بأنه استطاع أن يخدم الحقيقة وأن يخدم الأمة خيراً من أولئك المجاهدين المزعومين ، الذين لم يكونوا فى الغالب سوى سياسيين محترفين مهرجين .

(ب) أعمال مشهودة وآثار مذكورة :

إن صورة محمد عبده ، كما تتبدى لنا بعد الإلمام بشخصيته وسيرته ، لا تختلف عن الصورة التى سجلها عنه من قدر لهم أن يعرفوه أو أن يروه فى حياته :

فى ٣١ يوليه سنة ١٩٠٥ كتب « هارولد سبندر » – كاتب حزب الأحرار الإنجليزى – كلمة رثاء للأستاذ الإمام بعد وفاته بثلاثة أسابيع ، ووصف فيها لقاءه له بدار صديقه « ويلفرد سكاون بلنت » بعين شمس ، فقال : « هنا أمسك مستر بلنت عن الكلام ، والتفتَ فجأة لسماعه وقع حوافر فرس ، فقال : ها هو الرجل . . فالتفتُ مثله ، فاذا بصورة إنسان يقول

الناظر إليها إنها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين : شيخ حسن البزة، جهير الصوت، يمتطي فرساً عربياً كميتاً جميلا يقبل نحونا على مهل ، وعليه الأردية الطويلة التى لا تزال تضفى على الإنسان فى بلاد الشرق رونقاً ورواء ، وفوق رأسه العمامة الكثيفة التى هى الوقاية الحقيقية من حر الشمس . ولما انتهى إلينا ترجل وتلطف فى تحيتنا ، وتناول معنا فنجان شاى ، وأنشأ يحادثنا بالفرنسية ، وكان حديثه حديث مراقب مفكر وقف يرقب الحوادث من مكان بعيد . وتمنى فيما سبق لوطنه أمانى كباراً ، ولكنه تخلى عنها ، وإن يكن من البين أن نيران غيرته القديمة كانت لا تزال مشتعلة فى نفسه . وكنت ألمح فى عينيه ذلك الابتسام المشوب بالكآبة والرحمة الذى لا يرى إلا فى وجوه من قاسوا كثيراً من الأهوال والشدائد » .

وقال عنه تلميذه ومريده رشيد رضا فى « المنار » : « إنه سليم الفطرة ، قدسى الروح ، كبير النفس . وصادف تربية صوفية نقيــة ، زهدته فى الشهوات والجاه الدنيوى ، وأعدته لوراثة هداية النبوة ، فكان زيته فى زجاجة نفسه صافياً يكاد يضىء ولو لم تمسسه نـــار » .

وقال شيخ الأدباء عباس محمود العقاد فى كتابه « عبقرى الإصلاح والتعليم » : « رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة ، ورأيته مرات لا تحصى فى صوره الشمسية التى لا تلتبس إحداها بملامح صورة أخرى ، فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة إلى تلك الملامح فيما تنم عليــه وتشير إليه : قوة وطيبة متفقتان لا يبين لك إنهما تنازعتا يوماً أو تتنازعان ... وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم فى أخلادنا من سمات النبوة ، وهى فى طلعتها الإنسانية بشر مثلنا ، وإن لم نكن نحن بشراً مثلها فيما تتلقاه من وحى الله » .

من أبوين متوسطى الحال ولد محمد عبده فى عام ١٨٤٩ بقرية « محلة نصر » بالوجه البحرى . وتعلم القراءة والكتابة بمنزل والديه ، دون أن يذهب إلى « كتاب » القرية . وبعد أن جاوز العاشرة من عمره ، وأتم حفظ القرآن الكريم ، ذهب إلى الجامع الأحمدى فى طنطا ، ليتمّ تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية . بيد أن منهج التعليم بالجامع الأحمدى كان وعراً شاقاً ، حتى كاد الصبى أن يعتريه اليأس ويشتغل بالزراعة ، لولا أن التقى بأحد أخوال أبيه ، اسمه الشيخ درويش ، وكان رجلا صوفياً طيب القلب ، فاستطاع أن يروض جماحه وأن يوجهه إلى المعـــانى القدسية واللذائذ الروحية .

ولكن الحادث الجلل فى شباب محمد عبده هو التحاقه سنة ١٨٦٦ بالجامع الأزهر ، أهم مركز للثقافة الإسلامية . وهناك قضى زهاء ثلاث سنين دون أن يجنى فائدة تذكر من الدروس التى كان يستمع إليها حينذاك . فما لبث أن انصرف عن « العلوم الأزهرية » ، وتطلعت نفسه إلى علوم جديدة . وألمت به فى ذلك الحين أزمة نفسية جعلته ينقطع عن الدرس ، ويحاول أن يعتزل العالم ، وأن يمارس ضروب الزهد والرياضة ولكنه اجتاز تلك الأزمة بفضل « الشيخ درويش » أيضاً .

وكان من حسن حظه أن التقى بالسيد جمال الدين الأفغانى ، رائد الحرية الدينية والسياسية فى نظر الشعوب الشرقية . واستطاع محمد عبده بفضل ما تلقاه عن أستاذه الأفغانى من هداية روحية أن يتحول نهائياً عن طريق الزهد ، وأن يقبل على الحياة العاملة إقباله على دراسة العلوم العصرية المختلفة ، كالفلسفة والرياضيات والكلام والأخلاق والسياسة والفن ، وغيرها مما لم يكن مألوفاً فى مناهج الأزهر .

ووجد محمد عبده عند أستاذه جمال الدين الأفغانى روحاً جديدة لا نظير لها فى التعاليم الأزهرية : وجد عنده مذهباً فلسفياً واحداً ، ونظرة إلى الحياة عميقة ،

وصورة عن الكون منظمة . ولكن أهم ما استمد التلميذ من أستاذه هو الميل إلى الحرية ويقظة الوعى القومى . وقضى التلميذ فى صحبة الأستاذ شهوراً يحيا حياة الفكر والروح ، وهو مبتهج نشوان متعطش إلى اكتشاف المعرفة من ينابيعها الصافية .

ومنذ أن اتصل محمد عبده بالأفغانى اتجهت حياته اتجاهاً واحداً : أخذ يبذل جهوده للتحرر من سلطان العرف السائد والتقاليد الموروثة . وشرع يقرأ ما ينقل إلى العربية من ثمرات الثقافة الغربية ، وينشىء المقالات للصحف المصرية ، فنحس فيها أنه يحاول فى شىء من المشقة أحياناً ، أن يتخلص من العقلية المسيطرة إذ ذاك على البيئة الأزهرية . وفى سنة ١٨٧٧ تقدم لامتحان « العالمية » فى الأزهر ، وظفر بها ، على الرغم من الشكوك التى حامت حول اسمه ، لاتصاله بالأفغانى ، ولكتابته الفصول داعياً إلى اكتساب المعرفة والثقافة الحرّة ، وإلى السير فى طريق التجديد وترك الجمود والتقليد .

وبعد حصول الشيخ على هذه الشهادة أصبح من حقه أن يقوم بالتعليم فى الأزهر ، فأخذ يلقى دروساً فى التوحيد والمنطق والأخلاق . ثم عين مدرساً للتاريخ فى « مدرسة دار العلوم » ،ومدرساً للغة العربية فى « مدرسة الألسن » . فبدأ التعليم هناك بمحاضرات عن « فلسفة ابن خلدون » ومضى فى التدريس حتى تولى الخديو توفيق ، فأمر بنفى الأفغانى من مصر وعزل محمد عبده من دار العلوم .

ولكن رياض باشا أراد إصلاح جريدة « الوقائع المصرية » — وكانت لسان الحكومة الرسمى — فعين الشيخ محمد عبده محرراً بها ، ثم رئيساً لتحريرها . فكان فيها — بحق — مصلحاً ومعلماً فى آن واحد : كانت غايته رفع مستوى الأمة ، وتقويم أخلاقها . والنهوض بها نهضة ثقافية اجتماعية فى تدرج وأناة وتطور ومن غير طفرة ولا عنف . وكان يعتقد أن ذلك يتم إذا سلك قادتها سبيل التثقيف والتربية ونشر التعليم والنور ، لا سبيل تقليد الغرب من غير فهم ولا إدراك صحيح ، أو التمسك بظواهر المدنية المادية البراقة ، مع الغفلة عن صميم المدنية الروحية الصحيحة .

وقامت الحركة العرابية ، احتجاجاً على الضباط الأتراك والشراكسة ، فلم يكن محمد عبده مشايعاً لعرابى فى أول الأمر ، لأنه كان يراه ناطقاً بأفكار طائفية جزئية لا تعنى الأمة كلها ، وكان يرى الأفضل للبلاد قيام نظام للحكم مصحوب بإصلاح داخلى تقدمى وسيلته الرئيسية نشر الثقافة ، وبث التربية الأخلاقية والسياسية التى تناسب قيام دستور حرّ . ولكنه حين شهد ما حدث بعد ذلك من تطورات خطيرة تجلت فى تآمر الخديو مع الإنجليز ، لم يسعه إلا المسارعة إلى شد أزر الثوار العرابيين ، مضى فى تأييده للحركة حتى صار أحد الرءوس المدبرة للحكومة الوطنية ، وظل يناضل بالقلم واللسان فى عزيمة وإخلاص ، لتأليب جماهير الشعب على الطغاة المعتدين .

ولما فشلت الحركة العرابية ، بسبب الخيانة وسوء التدبير ، اتهم الشيخ محمد عبده بمناوأة الخديو ، وحكم عليه بالسجن ثم بالنفى ثلاث سنوات مع من نفى من العرابيين . فاختار الشيخ سوريا مقاماً ، ورحل إليها عام ١٨٨٣ . ولكن إقامته لم تطل فيها ، إذ دعاه أستاذه جمال الدين إلى باريس ، فلبى الدعوة وسافر إليها أوائل سنة ١٨٨٤ ؛ وهنالك أسس مع أستاذه جريدة « العروة الوثقى » للدعوة إلى إقامة جامعة شرقية ، غرضها ضم الصفوف وتوحيد الغاية : ودفع عدوان الغرب على الشرق عموماً وتخليص البلاد الإسلامية والعربية من الاحتلال البريطانى خصوصاً .

ولما توقفت جريدة « العروة الوثقى » عن الظهور لحيلولة الإنجليز دون إيصالها إلى القراء فى البلاد العربية ،

اضطر الشيخ محمد عبده إلى مغادرة باريس سنة ١٨٨٥ متجهاً إلى بيروت . وهنالك ألقى دروسه المشهورة فى « علم الكلام » ، تلك الدروس التى كانت أصلا لكتابه الذى نشره فيما بعد باسم «رسالة التوحيد» (وهى موضوع هذا التعريف) .

وعاد الشيخ سنة ١٨٨٨ إلى مصر ، فعين قاضياً بالمحاكم الشرعية ، ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف : وقد عرف فى هاتين الوظيفتين باستقلال الفكر ، وكان يتوخى فى أحكامه تربية الجمهور ، وإيقاظ وعيه وإصلاح ذات البين بين الأسرات وبين الأفراد .

وفى سنة ١٨٩٩ عين الشيخ مفتياً للديار المصرية ، فأضفى على ذلك المنصب مهابة وسناء . ولم يقتصر على الإفتاء فيما كان يحال إليه من مسائل ، بل وسع اختصاص المفتى وزاد من نفوذه . وقد امتازت فتاوى الأستاذ الإمام باستقلال الرأى والتسامح وسعة الأفق ، كما يتضح من الفتوى المشهورة باسم « الفتوى الترنسفالية » .

ولما عين الإمام عضواً فى مجلس شورى القوانين ، سار على سياسة ترمى إلى تربية الرأى العام فى مصر ، وتعويد الأمة دقة النقد والتمحيص ، والسمو عن الأغراض والأشخاص .

وكان الشيخ من أوائل مؤسسى « الجمعية الخيرية الإسلامية » فأخذ يعمل عن طريقها على تحقيق إصلاح أخلاقى اجتماعى ، يذكى فى الناس روح الاعتماد على النفس والتعاون بين الأفراد ، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان إلى الفقراء . وكان صوته أول صوت ارتفع فى الشرق العربى منادياً بنشر مبادئ العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات . وإليه يرجع الفضل فى إنشاء « مدرسة القضاء الشرعى » والعمل على إصلاح المحاكم الشرعية ، كما أسس « جمعية إحياء الكتب العربية القديمة » ؛ ودعا إلى إنشاء جامعة مصرية تقوم إلى جانب الجامعة الأزهرية ، ودافع عن الإسلام ورد على « هانوتو » و « فرح أنطون » مفنداً مزاعمهما عن العقائد الإسلامية . وتوفى سنة ١٩٠٥ وهو فى أوج نشاطه العقلى والروحى ، فكانت حياته الخصبة الحافلة دروساً حية وقدوة ملهمة للشبيبة الواعية .
وخير وصف وصف به هذا العبقرى المصرى «عبقرى الإصلاح والتعليم » — كما سماه فقيدنا الكبير عباس محمود العقاد — قول مستشرق أمريكى فاضل : « كان محمد عبده فلاحاً صميماً ، وليد تربة مصر العريقة قبل أن يغدو مفتياً وإماماً للمسلمين . وإننا لنلمح فى إخلاصه لهذه التربة ، وفى دعوته إلى الوطنية ، مزاجاً عجيباً من الوفاء للماضى المجيد ، والاستمساك بيقين الدين ، والولاء لوطنية الفلاح » .

٢ — فلسفة عاملة

(أ) تنوير الأذهان :

عاش الأستاذ الإمام سبعاً وخمسين سنة ، قضى أولها فى التعلم ، ووسطها فى التعليم ، وآخرها فى إعلاء شأن الدين وإصلاح حال المسلمين . ولكن الرسالة الإصلاحية لم تشغله عن الجهاد القومى ، فكان فى مقدمة الزعماء الذين أيقظوا مصر من سباتها الذى أسلمها إليه الطامعون ، ولم يدخر وقتاً ولا جهداً فى أداء المهمة الجليلة التى رأى وجوب النهوض بها ، تحقيقاً للوعى القومى وهداية للضمير الإنسانى . وأنفق حياته داعياً إلى الحق ، جاداً فى فعل الخير ، حريصاً فى هذا كله على أن يضع شخصه وخبرته فى خدمة المجتمع ، فضرب فى هذا المضمار أروع الأمثال . ذلك أن الرجل فوق كونه إماماً عصرياً من أئمة المسلمين ، كان فيلسوفاً بالمعنى الصحيح ، نظر إلى الفلسفة نظرة قديمة وجديدة فى آن واحد : فمن ناحية أخذ الفلسفة على معنى ممارسة الفضائل الأخلاقية ، وهداية الحياة الإنسانية . ومن ناحية أخرى أدرك أن التفكير الفلسفى لا ينبغى أن يظل محصوراً فى مجال النظر

الصرف ، وأنه لا يستطيع أن يعطينا عن الوجود شعوراً صحيحاً إلا إذا ألقى بنا فى معترك الدنيا ، وإلا إذا اضطرنا أن نتحمل مسئولية شخصية بإزاء كل ما يحدث فيها .

من أجل هذا رأى أن الخطوة الأولى فى كل مسعى فلسفى وكل إصلاح حقيقى هى تنبيه الوعى وإيقاظ الضمير ، واستثارة روح النقد تمهيداً للفهم . فلا عجب أن نراه فى جميع أقواله ورسائله ومؤلفاته دائباً على مهاجمة « التقليد » ، أى تقبل آراء الغير دون المطالبة بالدليل ، ودون الالتفات إلى حق كل شخص فى استقلال النظر ، وأن نراه دائم الإشادة بمبدأ « الاجتهاد » ، أى الفكر المتحرر من كل عائق ، وشديد الحملة على المقلدين ، حتى لنجده يصفهم أحياناً بما يقرب من الكفر والمروق من الدين . وهو لا يكف عن التنبيه إلى أن أبواب الاجتهاد لا تزال مفتوحة لجميع المسائل التى تثيرها ظروف الحياة المتجددة : فان فكراً يكون مقيداً بالعادات مستعبداً للتقليد ، لهو فكر ميت وليس له قيمة : « الفكر إنما يكون فكراً له وجود صحيح ، إذا كان مطلقاً مستقلا ، يجرى فى مجراه الطبيعى الذى وضعه الله تعالى ، إلى أن يصل إلى غايته » . وهذا البحث الحر أو هذه « الحاسة الناقدة » — باصطلاح الفيلسوف « كانط » — هى فيما يرى الأستاذ الإمام الخاصية الإنسانية على الحقيقة ، أى هى ما يميز « الحيوان الناطق » عن سائر الحيوان . إنها بعبارة أخرى : الشجاعة فى طلب الحق ، تلك الشجاعة التى تجعل طالب الحق صابراً ثابتاً لا تزعزعه المخاوف ، وتجعل المرء عزيزاً كريماً ، بعيداً عن أوهام العوام ، محطماً لأصنام السوق . وبهذه الشجاعة « يكون الإنسان حراً خالصاً من رق الأغيار ، عبداً للحق وحده » . وبها يتيسر للإنسان ، كما قال على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — أن يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال .

(ب) النقد تمهيداً للإصلاح :

نهض الإمام ، أوائل هذا القرن ، بمهمة الإصلاح الاجتماعى فى مصر ، فكان أول ما وجه إليه عنايته نقد الأوضاع الفاسدة فى المجتمع ، وراح يهاجم ما خلفته من آثار وخيمة فى الأفكار والأخلاق والعادات : أخذ يعيب على علماء المسلمين طرائقهم العقيمة فى التعليم ، إذ كانوا يقضون أعمارهم فى مناقشات لفظية ومجادلات سقيمة ، وينقطعون عن شئون الحياة . واستنكر هذا الضرب من الثقافة « المدرسية » أو البيزنطية التى تعتمد على القول وتقعد عن العمل ، وتدفع إلى الجدال دون الإنتاج .

ووجه الناقد المصلح هجوماً عنيفاً على ما فشا بين عامة المسلمين وعلمائهم من خرافات وبدع وأوهام ، كان من نتائجها تزييف تعاليم الإسلام التى تميزت بالسماحة والبساطة والقوة .

وقد كتب بهذا الصدد فى « حاشيته على شرح العقائد العضدية » (١٨٧٥) :

« وقد انتهينا إلى زمان يفتخرون فيه بالجهالة ، ويشيدون بشئون الضلالة ، ويحكمون بكفر من طالع كتب الكلام . ويستنفرون من تقرير عقائد الإسلام ورفع أستار الأوهام ، ودفع شبه الملحدة اللئام . قد عكفوا على عادات بالية وهذيانات من التحصيل خالية ، يفنون آجالهم سدى ، ويصدُّون عن طريق الهدى . حادوا عن طرق السلف الصالحين ، واتخذوا سبيلا غير سبيل المؤمنين : كلما لحوا نوراً إلهياً بادروا إلى إطفائه وعدُّوه شيئاً فرياً ، أو هدوا سنناً مرضياً استدبروه ونبذوه وراءهم ظهرياً . ولو أنى كشفت سيء أحوالهم لعجبت البشرية من قبيح أفعالهم ، ولكن الشكوى إلى الله . ليس فى زماننا أذن تسمع ولا قلب يجزع ، فإن كنت على شيء من العلم فاتخذ لك قبراً وإلا أوجعوك ضرباً وألقموك حجراً : فإن الأكابر فى هذا الباب

أصاغر والبدع لديهم شعائر». فلا حول ولا قوة إلا بالله . وتغيير هذا الحال إنما يكون بتأييد الله ، ولا نطيل الكلام ، فإن القوم لئام » .

وكتب أيضاً بعد ذلك بنحو عشر سنين ، إبّان إقامته فى بيروت :

« إن ضعف العقيدة ، والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، إلا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية ، ويطلبون للتخلص منها أى حيلة ، وهى من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم . ونرى الموسرين منهم يبخلون بأموالهم إذا دعت الحال إلى معـــاونة الدولة والإنفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم .. بعكس ما نرى فى سائر الأمم » .

وندّد الإمام بذلك الموقف السلبى الذى كان يقفه عامة المسلمين من السلطة الحاكمة : تأثروا بالعقائد « الجبرية » التى لا تمت إلى الدين بسبب ، فألقوا بجميع شئونهم على عاتق الحكومة ، متوهمين أنهم غير ملزمين إلا بدفع ما تفرضه عليهم من ضرائب ، كما ندد بسوء فهم الحكام لمعنى الحكم ، حين استغلوه فى تسخير الناس لإشباع أهوائهم ، وتذليل الأفراد لسلطانهم ، وجمع الثروة وابتزاز الأموال ، لإنفاقها فى قضاء شهواتهم وتحقيق مآربهم .

واقتنع المصلح الأخلاقى بأن التقدم « الجوّانى » تقدم المعرفة والتربية والخلق ، هو التقدم الصحيح الباقى ؛ وهذا يصدق على الجماعات كما يصدق على الأفراد . وعندنا أن ما رآه الأستاذ الإمام فى إصلاح المجتمع إنما هو اقتداء بما رآه النبى العربى أساساً لكل إصلاح إنسانى . . قال عليه الصلاة والسلام : « ما من عبد إلا وله جوّانى وبرّانى – بمعنى سريرة وعلانية – فمن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه ؛ ومن أفسد جوانيه أفسد الله برانيه » ، وقال : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »

وعلى الجملة نستطيع أن نقول إن الأستاذ الإمام لم يكف قط عن مهاجمة الآراء الباطلة والأعمال الفاسدة فى مجتمع جهل معنى الدين فى جوهره وابتعد عن إدراك روحه ، ولم يبق منه عنده إلا ظواهر لا تطابقها بواطن ، مجتمع تحكمت فيه الشهوات ، « فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب » ، مجتمع أخذ باب أفراده المجد الكاذب ، « وأحب كل واحد منهم أن يحمد بما لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل » .

أنى يكون الخلاص إذن ؟ أينبغى أن نلتمس علاجاً للمجتمع الإسلامى فى محاكاة آراء الغرب وعاداته ؟

وللإجابة على هذا السؤال نرى أن الأستاذ الإمام قد سبق إلى مهاجمة هذه النزعة ، نزعة الاقتباس عن آراء الغرب اقتباساً سطحياً ظاهرياً ، عارياً عن الفطنة وبعد النظر ، فقال : « إن أرباب الأفكار منا الذين يرومون أن تكون بلادنا – وهى هى – كبلاد أوروبا – وهى هى – لا ينجحون فى مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم ، بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح . فلا يمر زمن قريب إلا وقد بطل المشروع ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان » ، ثم قال « إن الذين يرومون الخير الحقيقى لوطنهم يجب أن يوجهوا اهتمامهم إلى إتقان التربية ونشر التعليم : إذ أن إصلاح التعليم يجعل تحقيق وجوه الإصلاح الأخرى أكثر يسراً ؛ ولكن الذين يتخيلون أن نقل أفكار الغرب وعاداته إلى بلادهم سيصل بها بعد زمن وجيز إلى درجة من المدنية تماثل مدنية الغرب ، هؤلاء يخطئون خطأ جسيماً ؛ فهم يبدأون بما هو فى الحقيقة نهاية تطور طويل المدى فإن الدول الأوروبية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن صهرت بوتقة الزمن عقليتها ، وساقتها ضرورات الحياة إلى يقظة وعيها ، وأدى الصراع الحربى والاقتصادى

إلى تطور الفكر فيها . إننا لو تأملنا تاريخ سير التقدم الأوروبى لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد، وهو إحساس نفوس الأهالى بآلام صعبة الاحتمال ، من ظلم الأشراف النبلاء ، وغدر الملوك ، وضيق وجوه الاكتساب . . وهذا الإحساس هو الذى دفع الأنفس الكثيرة العدد إلى الخروج من هذه الآلام ، فطلبوا لذلك أسباباً متنوعة ، أقواها التعاضد والتعاون على ترويج وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق ، فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات ، وتتألف الجمعيات . فكان جرثومة تقدمهم أمراً منبثاً فى غالب الأفراد ومحرزاً فى أغلب العقول : وهو نشاط الأهـالى فى اجتلاب الثروة ، وطلبهم لحرية العمل لينالوها ؛ ثم تدرجوا فيه ينتقلون من حال إلى حال ، حتى عم التغير جميع العادات والمشارب والقوانين » . وإذن فقد كان هذا فى الغربيين تقدماً طبيعياً تدريجياً . . « أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم إلى حالة التمدن الحاضرة ، والأهالى على غير علم منها بأنفسهم » .

ومن المحقق أن بعض المصريين قد اندفعوا إلى محاكاة الأوروبيين فى مظاهر مدنيتهم وأعراضها فحسب مثل الترف والأبهة والزينة ، دون أن يسائلوا أنفسهم عن حقيقة تلك المدنية أو يفطنوا إلى روحها ؛ وكان لهذه المحاكاة أثر غير حميد على عدد كبير من أغنيائنا ، إذ تورطوا فى الحماقات ، وسعوا وراء اللذات ، وأهملوا جوهر المدنية الصحيحة ، ألا وهو قداسة القانون الأخلاقى ، والشعور بالحقوق الطبيعية، وأداء الواجبات الاجتماعية .

ويختم الأستاذ الإمام ملاحظاته الناقدة بهذا النذير : « إننا نخشى لو تمادينا فى هذا التقليد الأعمى ، واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الواجبة ، أن تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا ، وأن يكون انتقالنا عنها على وجه تقليدى أيضاً فلا يفيد » . والطريق القويم هو التنوير وإيقاظ الوعى العام ، وتشكيل جمعيات فى القرى والمدن ، لتفهم القوانين واللوائح والمنشورات ؛ ثم وضع حدود قويمة للأعمال والأخلاق والتصرفات : فان إصلاح الأخلاق والأفكار والأعمال من أهم واجبات البلاد .

وبهذا الصدد كتب الشيخ محمد عبده فى « الوقائع المصرية » سنة ١٨٨١ : « الحكمة أن تحفظ للأمة عاداتها الكلية المقررة فى عقول أفرادها ، ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد عنهـا بالمرة . فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج ، حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون : أما إذا وضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، أو كلفوا من العمل ما لم يعهدوه ، أو خولوا من السلطة ما لم يعودوه ، رأيتهم يتحفظون فى السير ، لخفاء المقصود عنهم ، وضلال الرأى فيما لم يكن يمر على خواطرهم ؛ فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى ، لكن إلى ما هو أتعس منها بحكم الاستعداد القاضى عليهم بذلك » .

وجملة القول إن الجرأة والحكمة هما الطابعان اللذان يميزان أفكار الشيخ محمد عبده ناقد المجتمع المصرى ، وموقظ الوعى الإسلامى .

(ح) الإنسان حر مختار :

وقف الأستاذ الإمام من المشكلة التقليدية — مشكلة الجبر والاختيار — موقفاً واضحاً صريحاً لم يتغير منذ البداية : ناصر نظرية حرية الإرادة التى نادى بها المعتزلة مناصرة متصلة لم تنقطع ، وأضاف إلى حججهم فى تأييدها حججاً عصرية تقوم على البداهة وشهادة الوجدان ومطالب الأخلاق أكثر مما تقوم على المنطق أو الميتافيزيقا أو علم الكلام ، فقال : إن الذين ينكرون أن يكون للإنسان حرية ، ما عليهم إلا أن يفكروا فى معنى الأوامر الإلهية : أفيعقل أن يكون لهذه الأوامر

قيمة ، إذا لم يكن للإنســـان اختيار فى أن يطيعها أو أن يعصيها . وقد قامت أحكام الشريعة جميعاً على هذا الأصل ، وهو أن الإنسان مسئول عما يفعل ؟ « ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكاليفه به ؛ إذ لا يعقل أن يطالب شخص بما لا يقدر عليه وأن يكلف بما لا أثر لإرادته فيه » وكذلك يشهد وجدان كل إنسان بأنه حر مختار فى أفعاله : « كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه بأنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ثم يصدرها بقدرة منّا فيه » . وإذن فالوجدان والعقل والبداهة والشرع كلها متفقة على نسبة أفعال الإنسان إليه :

وكثيراً ما نهض الإمام محتجاً على « الجبريين » القائلين بأننا لا نستطيع أن نغير شيئاً مما كتب علينا فى لوح القضاء المحتوم ، ولذلك فلا فائدة من السعى والعمل. ومن الخير أن نسلم أمورنا إلى المقادير تصرفها دون أن نكلف أنفسنا جهوداً مقضياً عليها بالضياع . ويردّ الإمام على هؤلاء بقوله : « إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه : فان مثل هذا لمن سخف الرأى ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين » .

ويمضى الفيلسوف فى دفاعه عن الحرية وحملته على «الجبر» فيقول: إن المنكرين لحرية الأفعال الإنسانية يحتجون بالآية القرآنية : « والله خلقكم وما تعملون » ويفسرونها على معنى أن الله هو خالق أعمال الناس ، ولكنهم ينسون أن هذه الآية نفسها تقول : « وما تعملون » ، فهى بذلك تفيد نسبة العمل إلى الإنسان .

وليتأمل خصوم الحرية فى المثل الأعلى الذى قدمه النبى وصحابته للناس : إن أقوال النبى وسلوكه وتصرفاته ، تشهد كلها بما كان له من إيمان لا يتزعزع بحرية الأفعال . أفنحن بحاجة إلى أن نفيض القول فى نشاطه ومثابرته وجده وعلو همته ؟ « هل نقل عنه أنه اتكأ يوماً على وسادته واكتفى بالاستسلام للقدر فى تمام دعوته ، قائلا : الذى كفل لى النصر يكفينى التعب ، وضمان الله لإعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب ! كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً » . وجاء أصحاب النبى على أثره ، وتبعهم من جاء بعدهم من السلف الأولين « وكانوا أكمل الناس إيماناً بإحاطة علمه وشمول قدرته ، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار ، وكانوا أسوة فى السعى ومثلا فى الدأب والكسب » .

أما « التوكل » الذى يحتج به أنصار الجبر لتبرير ترك العمل ، فليس مفهوماً عندهم على المعنى الصحيح . وإنما حقيقة التوكل ثقتنا بالله ، مع استعمالنا للأسباب الطبيعية من أجل غايات ترسمها عقولنا ؛ « فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا فى الوسائل التى توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا ، وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال فى طريق الوصول إلى المقصود » وإن عقيدة « القضاء والقدر » إذا فهمت على الوجه السليم ، وخلصت من شناعة القول بالجبر ، لا يمكن أن يكون لها على الأخلاق إلا أثر حميد : تبعث النفوس على الإقدام والشجاعة ، واحتمال المكاره واقتحام الأهوال ، وتبث فيها روح التضحية وتطبعها على السخاء والثبات ، وبذل ما هو عزيز فى سبيل الفكرة والعقيدة : « والذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء . . كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق ، وتشييد المجد عــلى حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية ؟ » .

وإذن فقد رأى الأستاذ الإمام أن مناصرة عقيدة الحرية هى سبيل النجاة للأمة الإسلامية ، والانصراف عن الاعتقاد بالجبر معناه إيقاظ القوى الأخلاقية ، والتمسك بالعزة القومية ، والحرص على كرامة الإنسان.

(د) فلسفة الأخلاق سياسة أخلاقية :

قبل خمس وعشرين سنة قلنا عن الأستاذ الإمام : « كان هذا المفكر أخلاقياً بطبعه وفطرته ، ميالا إلى العمل ميله إلى النظر ، يريد دائماً أن يتصل بالناس ، وأن يخاطب الضمائر وأن يؤثر فى النفوس أثراً مباشراً ». ولقد آمن الإمام كما آمن الغزالى من قبله بأن الأخلاق الإنسانية قابلة للتغير ؛ وكلاهما فند مزاعم من ذهبوا إلى أن الأخلاق لا تتغير وأنها « من مقتضى المزاج والطبع » فقال الغزالى: « لو كانت الأخلاق لاتقبل التغير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله : « حسنوا أخلاقكم » وقال الأستاذ الإمام: إن بذور الخير التى يلقيها الهداة المرشدون فى نفوس الناشئين لا بد أن تنمو وتغلب بذور الشر التى أصيبوا بها من البيئة : « لأن الحق دائماً يغلب الباطل — والخير يصرع الشر ، إلا إذا اضمحل أنصار الحق ودعاة الخير وضاعوا فى كثرة الأشرار » . وقال بأن الله قد أودع فى فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر ، وأقام له من وجدانه وعقله أعلاماً تدله عليهما ، « فالله تعالى لم يجعل الشر أحب إلى أنفسنا من الخير ، كما يزعم بعض أهل النظر فى الأخلاق الإنسانية » .

وحياة الإنسان تكون أخلاقية بقدر ما ترتفع عن المصالح الفردية وتستهدف مصلحة الجماعة ، لأن الحياة الأخلاقية لا يمكن أن توجد لدى الإنسان إلا من أجل الجماعة وفى نطاق الجماعة ؛ وهذا ماعناه الفيلسوف المصلح حين وجه اللوم إلى بعض رجال الدين الذين قصروا عن فهم الأركان الأساسية للأخلاق الإسلامية : فقدوا الإيمان بالله « لأنهم أخذوه اسماً واكتفوا به علماً ورسماً » . وليس بينهم ما يدل على تضامنهم أو الثقة فى أنفسهم . فهم لا يحيون حياة عصرهم ، ويجهلون ما يدور حولهم ،ويعتزلون الناس فى مجتمعهم ، ولم يعد لديهم أمل فى النهوض ببلادهم .

ولا يستطيع الإنسان أن يعمل للناس ما لم تربطه بهم أسباب الود والتعاطف والتآلف . ولكن ينبغى فيمن يتصدى للهداية الأخلاقية أن يتوافر فيه الصدق والإخلاص ، فإن روح الصدق والإخلاص روح مشترك بين العلم والأخلاق ،ويتضمن استقلال الحكم واستقلال الإرادة . ويقول الإمام فى دروس الإفتاء : « لأجل أن يترك الإنسان أثراً فى العالم يحتاج إلى شيئين مهمين ، وهما الإخلاص وقوة الأخلاق » . وإذن فرجل الأخلاق يتعين عليه أن يبدأ بمهمة شاقة ، وهى أن يصلح نفسه وأن يجاهدها بكبح شهواته والسيطرة على رغباته . وهذا ما يسمى فى الإصطلاح الإسلامى المأثور « جهاداً » ، وهو عند الأستاذ الإمام مرادف لسيطرة الإنسان على نفسه .

وكما أن واجب الفرد أن يبحث عن الحقيقة الأخلاقية من أجل نفسه فواجبه كذلك أن يدعو غيره من الناس إليها . وهذا الضرب من الرقابة الأخلاقية على الأفعال ضرورى للمجتمع الخاص وللإنسانية عموماً : فإن هداية الناس إلى الفضيلة وإرشادهم إلى السبيل القويم إلى الخير ، وتجنبهم مزالق الشر والضلال هو واجب إسلامى أصيل ، يشهد عليه عمل النبى العربى وسلوك صحابته وأتباعه الراشدين: « فإياك أن تنخدع بما يقوله أولئك الذين يلبسون لباس العلماء ، ويزعمون مزاعم السفهاء ، بأنه لا يجب عليهم التذكير ولا النصح لكافة المسلمين ، لأن التذكير لا ينفع والنضج لا ينجع فان ذلك منهم ضلال وتضليل»: النصح واجب وطنى ، وتربية الأخلاق إصلاح قومى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة على كل ذى وعى سليم ، هو فرض عين لا فرض كفاية عند الأستاذ الإمام :

وإذا كان يلح هذا الإلحاح على ضرورة النصح الأخلاقى العام فذلك لأنه كان يعتقد أن الخير شىء مفطور فى طبيعة الإنسان ، وأنه « لا يحتاج إلا إلى تذكرة وتنبيه لكى يظهر للعيان » . ويقول الكتاب الكريم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » . ويفسر الإمام ذلك فيقول : « فى هذه الآية ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قبل الإيمان بالله ، مع أن الإيمان هو الأساس الذى تقوم عليه الأعمال الصالحة وقد أعطيت للأمر بالمعروف هذه الصدارة على الإيمان للإعلاء من شأن هذا الواجب ، ولبيان أنه حارس الإيمان » .

إن إصلاح الأخلاق تربية قومية ، وقد أكد الأستاذ الإمام فى مذكراته عن الحركة العرابية أهمية التربية القومية التى تقضى على أسباب التنافر والانقسام بين المواطنين ، وتبث الثقة بأنفسهم ، وتعلمهم معنى المصلحة العامة وبذل التضحيات لخير الوطن ، فقال : « كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها ، ويصرف كل منهم شأنه عن مجموعها ، ويلهيهم العاجل عن الآجل ، ويذهب بها الحاضر عن المستقبل ، فلا سبيل للاعتماد عليها فى دفع غائل ولا فى مقاومة صائل . وعلى ولى أمرها أن يبتدئ فيها قبل كل عمل بتهذيبها وإصلاح طباعها ، حتى تنشأ فيها الثقة وتعلو منزلتها فى نظرها ، ويغلب لديها أمر عامتها على أمر خاصتها ؛ عند ذلك تكون ينبوع سعادته فى السلم ، وسياجه المنيع لصد عدوه فى الحرب » .

والناظر فى التراث الفكرى الذى خلفه لنا الأستاذ الإمام يتبين بجلاء أن الروح التى ألهمته خلال فترات نشاطه كلها هى روح العمل البناء الذى كان يراه أمثل طريق إلى تقدم الأمة تقدماً موصولاً . والعمل عنده هو السبيل القويم لنيل الفضائل : فان أول صفات الفضيلة الإيجابية والفاعلية . والأعمال هى المحك الصحيح للصدق والإخلاص . . ومن أقواله فى ذلك : « الدليل على صدق الإنسان فيما يدعيه من الإخلاص أن يبذل من نفسه فى سبيله . فإن لم يبذل فهو كاذب . ومهما يبلغ الإنسان ولم يظهر هذا المحك إخلاصه فهو غير مخلص » . ولذلك كانت أعز أمانيه لهذه الأمة « أن يكون الفعل فيها أكثر من القول ، وأن يكون كل شخص من أبناء بلادنا كبيراً كان أو صغيراً ، مجداً فى نيل الفضيلة الثابتة التى يلهج بتحسينها وإجراء مقتضاها ، حتى تكون بذاتها شاهداً على أهلية صاحبها لما يقول » .

إن مما يستحق التنويه به فى أخلاقيات الإمام محمد عبده أنه جعل ذلك الإلهام الإنسانى الجوانى مبدأ لإصلاح الذات ومبدأ للفضائل الاجتماعية فى آن واحد . فقد شهد فى نفسه، أو فى عصره وبيئته، خطر الإغراق فى لذائذ الحياة الصوفية والوقوع فى شراكها مع إهمال الواجبات الملحة الراهنة التى يفرضها على الإنسان وضعه فى المجتمع ، ولا ريب أن الأستاذ الإمام كان صادق الرغبة فى التوفيق بين الحياة الصوفية والواجبات الاجتماعية .

٣ — تحليل رسالة التوحيد(١)

(ا) علم التوحيد التقليدى :

علم التوحيد أو علم أصول الدين هو علم يشتمل على بيان الآراء والمعتقدات التى صرح بها الشرع ، وإثباتها بالأدلة العقلية ونصرتها وتزييف كل ما خالفها .

وأصل معنى التوحيد — كما بينه الإمام محمد عبده — هو اعتقاد أن الله واحد لا شريك له . وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل

(١) أهم مؤلفات الأستاذ الإمام : « رسالة التوحيد » — « العروة الوثقى » (بالاشتراك مع السيد جمال الدين الأفغانى) — « الإسلام والنصرانية » — « تفسير جزء عم » — « تفسير سورة العصر » — « تفسير الفاتحة » — « المنشآت » . وفى هذا الفصل نحلل « رسالة التوحيد » وفى فصل تال سنحلل « العروة الوثقى » .

كون ومنتهى كل قصد . والمهمة العظمى لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم — هى إثبات هذه الحقيقة كما تشهد به آيات الكتاب العزيز .

فالغاية من هذا العلم إذن هى معرفة الله تعالى وصفاته والتصديق برسله اعتماداً على الدليل الواضح من كتاب الله الذى أمر بالنظر ، واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم — هذه هى الصورة التقليدية لعلم التوحيد الإسلامى .

(ب) سمات « رسالة التوحيد » :

أما « رسالة التوحيد » التى كتبها محمد عبده إبان نفيه فى بيروت ، والتى نشرها بعد ذلك سنة ١٨٩٧ ، فهى كتاب صغير أوضح فيه القول عن العقائد الإسلامية التى يراها أصولاً لا غنى عنها ، وفوّض لذوى البصيرة فى الدين تفصيل القول فيها .

والغرض من تأليف هذه الرسالة قد بينه المؤلف فى أكثر من موضع ، فقال فى الفصل الذى عقده عن حاجة البشر إلى رسالة الرسل : « ولسنا بصدد الإتيان بما قال الأولون ولا عرض ما ذهب إليه الآخرون . ولكنا نلتزم ما التزمنا فى هذه الوريقات ، من بيان المعتقد ، والذهاب إليه من أقرب الطرق ، من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف أو استقام عليه الموافق ، اللهم إلا إشارة من طرف خفى أو إلماعاً لا يستغنى عنه القول الجلى » .

فهذه الرسالة ، على ما يبدو لنا ، تهدف إلى غرض رئيسى هو تبيان تفوّق الإسلام وكماله . ولهذا نجد أن الأستاذ الإمام بعد أن عرض عقائد الإسلام عرضاً تفصيلياً ، وبعد أن بسط القول فى وجود الله وصفاته ، وحرية الإرادة الإنسانية ، وأسس الخير والشر ، ونظرية الوحى والأحكام الدينية — نجد أنه خصص الفصول الأربعة الأخيرة لدراسة الإسلام باعتباره عاملاً أخلاقياً واجتماعياً ، ودراسة تطوره التاريخى .

وقد قدم الأستاذ الإمام لهذه الرسالة مقدمة مركزة رسم فيها المراحل الكبرى التى مر بها تطور العقيدة الإسلامية . وحسبنا هاهنا أن نبرز سمتين من سمات هذه المقدمة :

السمة الأولى : هى أن الأستاذ الإمام يرى أن علم التوحيد إنما نشأ مع الإسلام وقام بقيامه . صحيح أن تقرير العقائد وتأييدها كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام . « ولكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون » . وجاء الإسلام فنهج بالدين منهجاً جديداً : أقام الدعوى ، وبرهن ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر .

والسمة الثانية : هى أن الرسالة تبين حقيقة غفل عنها الكثيرون ، وهى أن الاختلاف الذى وقع بين المسلمين وانقسامهم من حيث العقائد إلى فرق متعارضة منشؤه أسباب سياسية ، وأن الشبهات ثارت « بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن » .

فإذا قارنا « رسالة التوحيد » لمحمد عبده برسائل التوحيد عند السنوسى أو النسفى أو اللقانى أو الفضالى لتبين الاختلاف بين وجهات نظر المؤلفين السابقين ووجهة نظر الأستاذ الإمام : ذلك أن رائد الفكر المصرى قد أضفى على كلامه طابعاً أخلاقياً لا نجده فى المؤلفات الأخرى عن التوحيد . فمنذ عهد الغزالى نقرأ لأول مرة فى العصور الحديثة بحثاً فى الأخلاق الإسلامية يتجه إلى الغرض مباشرة من غير إقحام للمجادلات التى لا تعبر عن جوهر العقيدة الإيجابية السليمة ، ولا خوض فى مواضع الخلاف بين المذاهب . وقد أشار هو نفسه إلى ذلك فى تقديمه لكتابه حين قال مبيناً منهجه فيه : « تمهيد مقدمات وسير فيها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل ، وان جاء فى التعبير على خلاف

ما عهد من هيئة التأليف ، رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد » .

ومما يسترعى النظر فى طريقة محمد عبده فى التدليل أنه لا يلجأ فى « رسالة التوحيد » إلى إيراد النصوص من القرآن أو الحديث ، بل يسعى إلى إقناع العقل والقلب والإرادة عند من يراد استمالتهم إلى الإسلام . والإمام يكرر القول بأن الإسلام لم يفرض نفسه أبداً على الناس بالقوة أو السيف ، خلافاً لما تخرص به المتخرصون ، وأن انتشاره بسرعة مدهشة لا نظير لها فى التاريخ إنما مصدره ما وجد الناس فيه من كمال عقلى وأخلاق استمال النفوس إليه .

ومزية أخرى من مزايا « رسالة التوحيد » أن المؤلف جعل تصور الدين أكثر مرونة وشمولاً مما عهدناه لدى سلفه من المؤلفين . فالدين عنده ضرب من « الحدس » أو الشعور الفطرى ، هو أشبه بالبواعث الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية . وإذا صح ذلك فما على النفوس إلا أن ترجع بالدين إلى أصوله الطاهرة الأولى ، وتضع عنه أوزار البدع ، فتتلقى الهداية من ذلك الحدس الفطرى ، وترجع إلى الدين قوته وتظهر للأعمى حكمته : « الدين حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات » . ثم هو « من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه » .

ولكن ليس معنى هذا عند الأستاذ الإمام أن يهمل شأن العقل بالمرة فى قضايا الدين : فلقد بين لنا أن الإسلام دين يعتمد على العقل قبل كل شىء ، وإنما المراد هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى .

(ح) نظرية النبوّة :

فإذا خطونا إلى نظرية النبوة ، كما بسطها الإمام فى « رسالة التوحيد » ، تبينا كيف أضفى على الوحى معنى « جوّانياً » عميقاً . فبعد أن ذكر ما قيل فى تعريف الوحى بأنه « إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى » ، قال : « أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله ، بواسطة أو بغير واسطة » .

ويفرق الأستاذ الإمام بين « العرفان » و « الإلهام » فيقول : « الإلهام وجدان تستيقنه النفس ، وتنساق إلى ما يتطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » . ولكن الوحى ممكن فقط لمن اصطفاهم الله ، أى للأنبياء عليهم السلام .

ويرى الأستاذ الإمام أن « بعثة الرسل » ضرورية لأسباب ردها إلى سببين : أحدهما نفسانى . والثانى اجتماعى . ويقول : إذا نظرنا إلى الإنسان من الناحية النفسانية تبينّا أن فيه ميلا فطرياً إلى سعادة تفوق قدرته العقلية . ولما كان الإنسان عاجزاً بنفسه عن أن يعرف ماهية ذلك المصير وماهية تلك السعادة ، وماهية الوسائل للوصول إليها ، فقد تولى الله برحمته أن يرسل من حين إلى حين رسلا يكشفون للناس عن شىء من العلم الذى تلقوه من المنبع الأعلى .

أما الدليل الاجتماعى على الرسالة فالفكرة الأولى فيه هى أن قانون المحبة والعدالة ينبغى أن يهدى الإنسانية فى علاقات أفرادها بعضهم مع بعض . ولكن ذلك القانون قد أهمله الناس إهمالا صارخاً ، ففشت فى المجتمع ضروب الظلم والأنانية ، وهما سبب الفرقة والاختلاف بين الناس ؛ ولذلك حقت رسالة الرسل إلى الإنسانية لدعوتها إلى ذلك القانون ، وإنقاذها مما هى فيه من شرور وآثام .

فبعثة الرسل فى صميمها روحية ، القصد منها تربية الأمم ؛ وهى من متممات كون الإنسان ووجوده على الأرض ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع الإنسانى منزلة العقل من الشخص والفرد .

(د) فلسفة تاريخ الدين :

ولعل مما يسترعى نظر الباحث فى آراء الأستاذ الإمام أنه أقام نظريته فى الإسلام على ما يمكن أن يسمى « فلسفة تاريخ الأديان » . ومجمل تلك النظرية أن الدين فى جميع الأزمان واحد ، وأن مشيئة الله فى إصلاح الإنسانية واحدة . وكل واحد من الأديان الثلاثة الكبرى — اليهودية والمسيحية والإسلام — بمثابة مرتبة من مراتب الشعور الدينى فى تطوره . لقد مرت بالإنسانية أزمان والناس من فهم مصالحهم فى طور هو أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالعالم ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، فكان من الحكمة أن يجئ دين يخاطب الحواس (يقصد اليهودية) . ثم تدرجت الإنسانية ودق حسها ، ولطف شعورها ، فجاء دين يناسب هذه الحال ، فيخاطب القلب والشعور (يقصد المسيحية) . ثم بلغ الشعور الدينى اكتمال نضجه ، فظهر دين يخاطب العقل ، ويشركه مع العواطف والإحساس (يقصد الإسلام) . لكن هذه الأديان الثلاثة متفقة فى جوهرها ما دامت تنشد عبادة الله وهداية الناس فى صدق وإخلاص .

(هـ) « إرادية الرسالة » :

والأمر الجدير بالذكر هو موقف الشيخ محمد عبده من مشكلة الإرادة الإنسانية التى اختلفت فيها الفرق الإسلامية . فنرى الإمام المصلح يدلى بنظرية توفق بين علم الله وفعل الإنسان ، وتبين أن الإنسان يشعر بكسبه لأفعاله ولكنه يجب عليه أن يعلم أيضاً أن قدرة الله فوق قوته ، وأنها تحيط بجميع أعماله .

ومهما يكن عند الأستاذ الإمام من طرافة النظرة فى هذا الموضع أو فى غيره فإن هنالك شيئاً لا ريب فيه : وهو أنه كان حريصاً كل الحرص على أن يقيم فلسفة إسلامية قوية ، تدعو إلى تعاليم الحرية ، وتبث أخلاق الصبر والجهد والعمل ، فتوقظ العالم الإسلامى من حال النعاس والخمود ، وتبعث فيه أملا كان من قبل حقيقة واقعة ، وتعيد إليه سابق مجده فى مجالات العلم والدين والأخلاق والسياسة جميعاً .

٤ — نصوص مختارة من رسالة التوحيد

(ا) حرية أفعال الإنسان :

« كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ، ثم يصدرها بقوة ما فيه ، ويعد إنكار شىء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضاً فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس . ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه ؛ وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه أن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى ، إن كان سبب الإخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه ، فينبرى لمناضلته ؛ وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ؛ كأن هبت ريح فأغرقت بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته ، أو علق أمله بمعين فات ، أو بذى منصب فعزل ، يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته . فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره

مستندة إلى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى عمله وإرادته ، خشع وخضع ، وردَّ الأمر إليه فيما لقى ؛ ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى :

فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله . وقد عرف القوم شكر الله على نعمه ، فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيئاًمنه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه :

وقد خاض فيه الغالون من كل ملة ، خصوصاً من المسيحيين والمسلمين . ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدأوا ؛ وغايةما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ؛ فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق، وهو غرور ظاهر ؛ومنهم مَن قال بالجبر ،وصرح به ؛ومنهم مَن قال به وتبرأ من اسمه ؛وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف ، وإبطال لحكم العقل البديهى ، وهو عماد الإيمان .

ومن مميزات الإنسان حتى يكون غير سائر أنواع الحيوان أن يكون مفكراً مختاراً فى عمله على مقتضى فكره ؛ فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ؛ ولو سلب شىء منها لكان إما ملكاً أو حيواناً آخر ؛ والفَرْض أنه هو الإنسان .

فهبة الوجود له لا شىء فيها من القهر على العمل ؛ ثم علم الواجب (أى علم الله) محيط بما يقع من الإنسان بإرادته ، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا ، وهو خير يثاب عليه ؛ وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر . والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ؛فلا شىء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب، وكون ما فى العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع ، والواقع لا يتبدل . . . » :

(ب) وظيفة الرسل فى المجتمع :

« تبين مما تقدم فى حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية . . ولكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة أو تقويم ملكاتها أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين .. يرشدون العقل إلى معرفة الله،وما يجب أن يعرف من صفاته ، ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان ، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ؛ يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده . . . يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم : . ويضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم ، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق ، مع بيان الحق الذى تهدر له ، وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا بحق مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأغراض .. ويعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به ، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده » :

و« ليس من وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ومعلمى الصناعات : فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ،

ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاته ولا ما استكن من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم ، وتسابقت إلى دقائقه الفهوم : فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . . . » .

« قلنا إن منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص ، أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول : منزلة السمع والبصر . أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره ، فيتردى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه ! يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شئ ، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها . ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله . كذلك الرسل — عليهم السلام — أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة : فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة ؛ ومنهم من غلط فى فهمها وانحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء . فالدين هاد والنقص يعرض لمن دعوا إلى الاهتداء به ؛ ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم إليه . . . » .

« الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية ؛ الدين قوة من أعظم قوى البشر . وإنما قد يعرض لها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه . وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ، ويرجعوا إلى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فنرجع إليه قوته ، وتظهر للأعمى حكمته . . . » .

« ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين . . . فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علماً يهتدى به ، وإنما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى ، كما لا يستقل الحيوان فى إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا . كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات . والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله ، والإذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال . كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ، ليصل منها إلى معرفتها ، وأنها آتية من قبل الله ، وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به ، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ؛ ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد : فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به . فإن جاء ما يوهم ظاهر ذلك فى شىء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ؛ وله الخيار بعد ذلك فى التأويل ، مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد التشابه فى كلامه ، وفى التفويض إلى الله فى علمه . وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى » :

(ح) انتشار الإسلام بفضل تعاليمه :

« جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين . فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية ، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ؛ وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم له وإليه راجعون ؟ . . » .

« اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة . تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام . . وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة ؛ بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السماوات والأرض وقاهر الناس أجمعين . . »

« تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره — سواء كانت إرادة بشرية — ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية — أو أنها هى كإرادة الرؤساء والمسيطرين ، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها . . . »

« صار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة ، حراً من العبودية ، لكل من سواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر : لا علىّ فى الحق ولا وضيع ،ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء . . »

« طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، . . وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشرباً ولباساً وزينة . . .

« أنحى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم .

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ؛ كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنة هياكل الوهم : نم فإن الليل حالك ، والطريق وعرة ، والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة .

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام — أعلام الكون ودلائل الحوادث .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجّل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان . . .

عاب أرباب الأديان فى اقتفاء أثر آبائهم ،ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم . . فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، وردّه إلى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته . .

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما : وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له إنسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها . . .

جاء الإسلام والناس شيع فى الدين ، وإن كانوا إلا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ،

ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون : فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب . أنكر الإسلام ذلك كله ، وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد . . . والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة ، مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه ، معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . . .

جاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية . وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه . وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ، ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وأن الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب . وطالب المكلف برعاية جسده ، كما طالبه بإصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعدّ كلا الأمرين طهراً مطلوباً ؛ وجعل روح العبادة الإخلاص ، وأن مافرض من الأعمال إنما هو لما أوجب من التحلى بمكارم الأخلاق . . ورفع الغنىّ الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ؛ وعامل الإنسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد : فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ؛ وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعى فى صلاح الدنيا .

شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل : فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن . ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة إنما تكون بعد التحابّ بين أهل الزوجين ، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ، وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه . . ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم . ونهى بعد أداء الجزية عن كل إكراه فى الدين . . .

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر أن لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة ، وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى فى الجنس والفصل والخاصة ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم . .

فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الغنى على الفقير . . ولم يحث على شىء حثه على الإنفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان ، فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة . . . فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين . وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ؟ » .

٥ — إشعاع رسالة التوحيد

كان لتعاليم الأستاذ الإمام عموماً ولرسالة التوحيد خصوصاً أثر كبير لا فى مصر وحدها بل فى العالم الإسلامى كله .

أما فى مصر فقدترجم الشيخ مصطفى عبد الرازق (مع المسيو برنار ميشيل) « رسالة التوحيد» إلى الفرنسية سنة ١٩٢٥ وصدرها بمقدمة مستفيضة نفيسة عن حياة

الشيخ محمد عبده وآثاره ، وخدمته للعقيدة الإسلامية بتأليف هذه الرسالة .

وأما فى الهند فقد تولى بعض العلماء ترجمتها إلى اللغة الأوردية ، ثم وضعت فى برامج الدراسة فى جامعة على جار (عليكرة) وغيرها من المعاهد الإسلامية فى الهند وباكستان .

وفى تركيا قام الأستاذ « محمد شرف الدين » مدير المعهد الإسلامى بكلية الآداب بجامعة استنبول بتدريس مذهب الأستاذ الإمام؛على ما هو مبسوط فى « رسالة التوحيد » .

وما من شك فى أنه كان لرسالة التوحيد ولغيرها من مؤلفات الإمام أكبر الأثر فى توجيه حركات التجديد التى لا تزال إلى يومنا هذا تزداد على الأيام نمواً وازدهاراً ، بفضل دعوة التنوير التى بدأها فى مصر وامتدت إشعاعاتها إلى ربوع العالم الإسلامى ، حتى صح لنا أن نقول مع قاسم أمين : « نعم كان للإمام الكبير الذى فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم وأعداء كثيرون : وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه ، فاقتصروا على التمسك بما وجد عليه آباؤهم من قبل . . . فكان الأستاذ الإمام يحارب هذا الجيش الطويل العريض بقوة وعزيمة يحار العقل فيهما . ولكنه كان يدافع بقدر الضرورة ولا يتعداها ،ويحارب حرب الشجاع الكريم الذى لا يطعن من الخلف ولا يخدع ولا يغش . وكان فضلا عن ذلك لا يكره خصومه ولا يبغض أعداءه ، وإنما يناقش أفكارهم ، ويطعن على أوهامهم ، ويهدم معتقداتهم الباطلة ، ويرجو لهم الهداية ، ويرشدهم إلى الصواب » .

* * *

ولا نزاع اليوم فى أن « عبقرى الإصلاح والتعليم » — كما دعاه فقيدنا الكبير عباس العقاد — هو طراز ممتاز من علماء المسلمين .

وإذا كان قد استحق لقب « الأستاذ الإمام » فذلك لأنه لم يكن إماماً فى شئون الدين فحسب ، بل كان إماماً فى أمور الدنيا أيضاً .

ولا يخفى أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة الدنيوية ، على نحو ما عهدنا فى سيرة ذلك المصلح الفيلسوف ، هو الجوهر الخالص من تعاليم الإسلام .

